قراءة في كتاب: سادة الفقر

تأليف: غراهام هانكوك

ترجمة: د. ناصر السيد ومسمار السقيد

الناشر: دار الحداثة، بيروت ، ط٢/٢٠٠٣، ١٩٠ صفحة .

عرض : مصطفى محمود عبد السلام

يثير عنوان كتاب غراهام هانكوك: سادة الفقر) الكثير من الأسئلة.. فقد ظلت كلمة السادة) تطلق على الأغنياء لأمد طويل.. وإذا بهانكوك يطلقها على ظاهرة الفقر.. التي ينوء تحت ثقلها كثرة من البشر في أنحاء العالم. وعندما نقرأ الكتاب نفاجأ بأرقام ووثائق هائلة يصعب علينا أن نصدق كل ما ورد فيها، وذلك بسبب غرابتها وبشاعة صورتها وتداخلها في شؤون عديدة وقضايا صعبة عند وضعها في موقع المنطق والحقيقة..

إلا أن الخبرة الصحفية الطويلة التي امتلكها غراهام هانكوك وعمله في وكالات العون والغوث ووجوده على تماس مباشر مع الناس في بلدان العالم الثالث إلى جانب عمله في الوكالات الإنسانية، جعلتنا نصدق ما ذهب إليه من حقائق وأرقام وأحداث ووثائق؛ بحيث أصبح الكشف عنها مثار تساؤلات ملحة!

يقول **هانكوك**: «**هذا الكتاب موجه ضد مجموعة البيروقراطية الغنية التي اختطفت من قلوبنا الرحمة، والبيروقراطية التي أعني هي أولئك الذين يديرون المعونة الغربية ثم يرسلونها إلى فقراء العالم الثالث بطريقة وضفها بوب غيلدوف مرة: «تشويه لفعل الكرم الإنساني» ولهذا السبب –يوضح هانكوك– كان «هجومي منصب بصورة مبدئية على منظمات العون الرسمية»** .

وحين نتواصل مع كتاب سادة الفقر نتبين كم كنا في حالة غياب تام عن العالم المحيط بنا، وكم استغفلتنا المنظمات الإنسانية، وكم كانت لا إنسانية في تعاملها مع البشر في أنحاء العالم.. وكم كان مفهوم (الدعم، والمساعدة، والمعونة) التي يُعلن عنها.. كاذبة!!

كذلك.. نتبين حجم الخسائر التي تدفعها البشرية من الأرواح والدماء والثروات والتضحيات.. وكم يغدق على نفر محدود من الأموال باسم فقراء العالم.. حتى يكونوا هم السادة على الفقراء –العبيد!

وليس بوسع قارئ هذا الكتاب المهم والمثير والنابه إلا أن يتساءل عن الأسباب التي تكمن وراء الصمت عن ما ورد في هذا الكتاب من حقائق.. يقول **هانكوك**: «**إن الغذاء المقدم من المجموعة الأوربية كهدية، عادة ما تصحبه كثير من الشكاوى من المنتفعين بناء على قول عضو البرلمان الأوربي رتشارد بالف: « إنه من غير المقبول تماماً أن نقوم بتصدير غذاء لا نأكله نحن أنفسنا» . وفي أعقاب انتشار الإشعاع الصادر عن حادث تشرنوبل في روسيا عام ١٩٨٦ تحولت كميات من الأغذية الملوثة التي تعتبر غير قانونية في أوربا إلى شحنات إعانة**» ويكشف المؤلف عن المساعدات التي قدمتها إحدى المنظمات التطوعية الأمريكية الخاصة إلى كمبوديا إبان المجاعة الكبرى هناك ٧٩–١٩٨٠ حيث تبين أن: «الغذاء كان

قديماً لدرجة أن أصحاب حدائق الحيوان رفضوا إعطاءه لحيواناتهم في سان فرانسيسكو، كما أن فعالية الأدوية قد انتهت قبل خمسة عشر سنة» .

ونقل المؤلف عن **ماري زلفيا**/ موظفة الصحة العامة في نيكاراغوا أنه في كل منح الأدوية تكون هناك جرعات إضافية من حليب المانيزيا.. وأنه يمكن استخدامه في طلاء المبنى.. و«قامت منظمات الإغاثة بشحن ٨٠٠ حقيبة من أغذية الأطفال الفاسدة لأحد معسكرات اللاجئين في هندوراس» و «تسلمت بتسوانا ٥٠٠ طن من الألبان المجففة التي لم تضف إليها الفيتامينات الأمر الذي يعتبر مخالفاً لأبسط القواعد البديهية» .. وشحنت المجموعة الأوربية ١٥ ألف طن من الذرة الشامي إلى مناطق موزمبيق المتأثرة بالمجاعة و «عند وصول تلك الشحنة وجد أنها قديمة ومليئة بالحبوب المكسرة والأوساخ والطين وبذلك أصبحت غير صالحة لاستهلاك الإنسان، وشحنة أخرى من ٢٦ ألف طن من الذرة الشامي أرسلت كمساعدة غذائية لشعب النيجر، تبين عند فحصها بواسطة المراجعين أنها لا يمكن أن تكون مقبولة حتى كغذاء للحيوانات» و في «عام ١٩٨٣ أوقفت المغرب استخدام ٢٤٠ طناً من الشحوم لصناعة الصابون تبين أن الزيت يحتوي على أربعة أضعاف لأعلى معدل جرثومي مسموح به من قبل النظم الأوربية، وأتلفت تونس ٣٤٥ طناً من زيت الشحوم أكثر خطورة لاحتوائه على نسبة عالية من البروكسيد وتلوثه بالديدان» وعن الامتيازات التي يتمتع بها موظفو الأمم المتحدة يقول المؤلف: «إعفاءات جمركية في الكحول وغيرها.. ومرتبات عالية تبلغ في المتوسط ٥٥ ألف دولار سنوياً، وبالمقابل فإن وزراء الحكومة الصوماليين الذين يتقاضون أعلى المرتبات، عليهم أن يعملوا خمسين عاماً ليحصلوا على المبلغ نفسه» . وعن ديون العالم الثالث التي تبلغ التريليون دولار يقول: «إن إعادة دفع الأرباح وأصول الدين تكلف البرازيل مثلاً ٤,٥ مجموع العائد من صادراتها السنوية، وهو مبلغ يعادل الحد الأدنى لأجور ١٦ مليون عامل..» ويصل إلى حقيقة مفادها: «أن العالم الثالث هو نتيجة للمعونة الأجنبية، ومن دون معونة أجنبية ليس هناك عالم ثالث» .

وينقل عن السناتور **هيوبرت همفري**.. قوله: «لقد سمعت بأن الناس قد يعتمدون علينا في غذائهم. هذه أخبار سارة بالنسبة إلى ذلك أنه على الناس أن يأكلوا قبل كل شيء، فإذا أردت أن تنظر إلى طريقة تجعل الناس ينحنون ويعتمدون عليك على أساس تعاونهم معك، فإن الاعتماد الغذائي سيكون رهيباً» .

ويقول **جون كينيدي** عام ١٩٦١: «إن المعونة الأجنبية وسيلة يمكن للولايات المتحدة عن طريقها أن تثبت مركز نفوذ وسيطرة حول العالم، وأن تدعم عدة دول قد تنهار بالتأكيد وتنضوي تحت الكتلة الشيوعية، وبعد سبع سنوات أضاف نكسون: دعونا نتذكر بأن الهدف الرئيسي من المعونة ليس هو مساعدة الأمم الأخرى بل مساعدة أنفسنا

أيضاً» . وعن عمل الأمم المتحدة يوضح **غراهام هانكوك**: «إن العمل في الأمم المتحدة، في أي وظيفة قيادية يعني الانضمام للأرستقراطية المتميزة المنعزلة بصورة فعالة من متاعب الحياة اليومية، ففي الفاو في روما هناك (٧٥٠ فرداً تتراوح مرتباتهم بين ٧٠-١٢٠) ألف دولار في العام يقع بضمنهم ١١ مساعداً للمدير و ٣١ من كبار المديرين و(١٢٥) مديراً و(٣٦٢) ضابطاً كبيراً و(٢٢١) ضابطاً أولاً). إن رئيس جامعة الأمم المتحدة يتقاضى ما يعادل ثلاثة أضعاف مرتب رئيس وزراء النرويج، وكثير من موظفي الأمم المتحدة خاصة العدد المتزايد في الدرجات الممتازة يتقاضون رواتب أكثر من أي موظف عام أمريكي عدا رئيس الجمهورية. أحد هؤلاء الرجال نائب السكرتير العام الذي تقاعد مؤخراً بمصافحة وداع ذهبية بلغت نصف مليون دولار زائداً معاش سنوي بلغ ٥٠ ألف دولار، ولم يمض وقت طويل حتى تم تعيينه كمستشار بمرتب ١٢٥ ألف دولار في السنة» . مع كل هذه الأموال الضخمة... ماذا فعل هؤلاء أمام: «٤٠٠ مليون طفل في العالم الثالث لا يستطيعون الذهاب لأي مدرسة.. إنهم فقراء جداً لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يأكلوا و ٢٨٠ ألف منهم يموتون في كل أسبوع بسبب الظروف المصاحبة لسوء التغذية» ؟ إن ما فعلته منظمة اليونيسيف عام ١٩٤٦ لأطفال بلجيكا.. مرعب، مرعب تماماً.. فقد كشف النقاب عن حلقة جنسية للأطفال، وأخرى لأخذ صور فاضحة وتم التستر عليها أمام «أموال أمريكية لدعم المنظمة» !

.. من هنا وجد كثرة من الناس في صوت رانوي شيخ قبيلة اكسنفو البرازيلية خير معبر عنهم وأن قوله: «لا نريد شيئاً من الرجل الأبيض. لقد جلب لنا فقط الموت والمرض والقتل. لقد سرق غاباتنا. إنه يريد أن يقضي عليها جميعاً». ونجد في وصف البروفيسور **بول سترتين** من جامعة بوسطن ومستشار البنك الدولي من الدقة والموضوعية بحيث يمكن أن يوجز لنا الحقيقة. يقول: «إن المرتبات العالية ومستوى المعيشة العالي الذي يعيش فيه هؤلاء الخبراء، يجعلهم بعيدين عن المجتمعات التي يعملون فيها. إنهم كالزهور التي ليست لها جذور سرعان ما تذبل» .

وفي الدعم والتنمية نجد أن ما يسمى عجلة التقدم والتنمية تسحق آلاف الأميال من الغابات في أندونيسيا والبرازيل.. ويشبه عمل المنظمة الإنسانية قنبلة هيروشيما.. وفي غانا تم بناء سد يعطي الكهرباء للمناطق الأكثر رفاهية.. بينما يدفع الفقراء ثمن المشروع.. ويعاني كثرة منهم من العجز والمرض والعمى بسبب طفيليات الماء التي تسبب فيها بناء السد.. وزاد على مأساة الفقراء مأساة جديدة!!

.. وهكذا يتم إنشاء «**مشاريع لا قيمة لها، بل هي أحياناً مؤذية لأولئك الذين يفترض أن يستفيدوا منها**» **إنها «مشاريع تلبي حاجة بيروقراطيي الوكالات أنفسهم وإشباع رغبات العاملين النفسية والمهنية والحاجات التجارية للمتعهدين الذين تشتري منهم المعدات والخدمات.. إنها ريح مريضة تلك التي لا تجلب لأحد خيراً».**

ويكشف المؤلف بالأرقام حجم الفوائد

التي تجنيها الدول الكبرى مثل أمريكا وبريطانيا وسواهما من جهود المعونة وتقديم الخبرات ويبدو الحصاد مذهلاً !! أما مقر الأمم المتحدة في نيويورك.. فيكفي أن نعرف حجم النفقات السنوية للمدينة والتي تؤخذ من ميزانية المنظمة والتي تقدر بحوالي ٤٠٠ مليون دولار و١٢٥ ألف دولار شهرياً قيمة غرامات وقوف سيارات !!

ولأن أمريكا تريد أن تحقق الفوائد لنفسها دائماً، نجدها وباسم المعونة تقوم بإنشاء مؤسسة التنمية الزراعية الجمايكية.. وتسببت في خسائر فادحة لجامايكا.. وعمدت أمريكا إلى «خلط الجبن الذي عمره بين شهر وشهرين مع الكميات الجديدة» تفادياً للخسائر! وفي الفيلبيين تم دفع ١٠٠ مليون دولار «للمجموعة الفنية التي استخدمتها ملكة الجمال السابقة اميلدا ماركوس في تجميل حيطان منازلها المفضلة..»

بينما كان حجم الدين الأجنبي -الذي تعاني منه الفيلبيين -قد بلغ (٢٦) بليون دولار تراكم حتى عام ١٩٨٦ عندما أقصي الرئيس **فيردناند ماركوس**» . و..أنفق **جان بيدل بوكاسا** رئيس جمهورية أفريقيا الوسطى على نفسه مبلغ: «٢٠ مليون دولار كان من مجموع معونة ذلك العام -١٩٧٧- من أموال دافعي الضرائب. .. وكان وضع التاج قد كلف ٢ مليون دولار.. والذي زينت قمته ماسة عظيمة، وقام بلف نفسه بأردية صممت بواسطة غوسلين بكلفة ١٤٥ ألف دولار» وقد برر بوكاسا كل هذه النفقات بقوله: «**لا يمكن للمرء أن يصنع تاريخاً عظيماً بدون تضحيات.. وهذه التضحية مقبولة من السكان**» . أما الثروات الضخمة لأفريقيا فقد ذهبت للرجل السمين بينما الرجل النحيف يعاني من الجوع.. وقد تم شراء أرضه في أزمة الجفاف بثمن بخس.. وهكذا تساعد المجاعة على ثراء الأثرياء! وفي زائير -البلد الأكثر فقراً- لم يمنع موبوتو أن يصبح أغنى رجل في العالم وتقدر ممتلكاته- محفوظة بواسطة المخابرات الغربية بعيداً عن زائير -بـ ٣ و ٤ بليون دولار..

وفي هاييتي.. قدم صندوق النقد الدولي جزءاً من دين عاجل دفع بمبلغ ٢٢ مليون دولار.. «وبعد يومين اكتشف فريق من الخبراء أن الرئيس **جان كلود دوفالييه** قد قام بسحب (٢٠) مليون من هذا المال لاستخدامه الشخصي واختفاء ١٦ مليون دولار من وحدات حكومية. إضافة إلى أن البنك المركزي يدفع ٢,١ مليون دولار سنوياً.. كل ذلك حدث.. من قبل **دوفالييه** المساند لأمريكا» . هل يمكن المضي إلى ما لانهاية مع هذا الكتاب -الوثيقة، والذي يكشف عن الأساليب التي تمارسها أمريكا خلال منظمة دولية يفترض أن تكون معبرة عن آمال وطموحات الدول التي منحتها الثقة.. فإذا بها تعبر عن سياسة أحادية لأمريكا وخدمة عملائها ودأبها أن يسود الفقر في العالم، حتى يكون الامتياز لمنظمة ترعى مصالح أمريكا.. بكل السبل..؟ هذا الكتاب.. لابد أن يقرأ من قبل كل إنسان يبحث عن حقيقة ما يجري.. حقيقة السلب والنهب والاستغلال التي تمارس ضد الشعوب.